لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء الثالث عشر : تفسير الآيات ٤٢-٥٢ من سورة إبراهيم

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثالث عشرمن سلسلة لقاءات هذا الشهر الكريم، واختيارنا اليوم إن شاء الله لأواخر سورة إبراهيم[1]، وفيها من الاعتقادات العظيمة التي على العبد أن يحملها في قلبه لله، ولتفسير ما يحصل معه في الحياة، ولتفسير الأحداث التي تكون حوله الشيء الكثير، وعلى ذلك تكون هذه الكلمات من كتاب الله منارًا لنا نفهم به الأحداث، ونعايش بها الأوضاع، ونكون بذلك من أولي الألباب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٢ - ٥٢

[1] [إبراهيم:٤٢]

يقول الله عزّ وجلّ في هذه الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ لا تعتقد هذا الاعتقاد ولا تظنّ هذا الظنّ، فإنك بذلك تكون لا تعرف الله.

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فإذا أردت أن تعرف تعليل بقاء الظالمين فهذا هو **التعليل**؛ يؤخرهم ليوم هذه صفاته.

ماصفات هذا اليوم؟ يوم تشخص فيه الأبصار.

ومِن حالهم في ذلك اليوم:

- أنَّهم مهطعين، سيكون سؤالنا: ما معنى مهطعين؟
- مقنعي رؤوسهم، وأيضًا مامعنى هذا الوصف؟
- لايرتدّ إليهم طرفهم.
- وأفئدتهم هواء.

فكل واحد من هذه الوصوفات نفهمها، ونعرف كيف سيكون حال هؤلاء الظالمين في الدنيا؟

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ هؤلاء الظالمين خوِّفهم من هذا اليوم ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ ﴾ اعترفوا الآن بربوبيته كما اعترفوا أولًا بربوبيته، ولكن يريدون الآن أن يتوسَّلوا بربوبيته إلى أمر.

﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي: هم يفهمون أنَّ الله يدعوهم، ويفهمون أنَّهم مأمورين باتِّباع الرُّسل، فذاك اليوم أول مايواجِهُون يريدون أن يؤخَّروا إلى أجل قريب، وفيه يستجيبون للدعوة ويتَّبعون الرسول.

ونحن نسأل الله أن يجعلنا ممَّن أطاع واستجاب ولم يخُن واتقى الله.

فيكون الجواب عليهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ المعنى: أنَّه قامت عليكم كل الحُجَج، بعد قيامها قُلتم: ما لكم من زوال ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ كيف تقسمون مالكم من زوال! وأنتم قد

سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم قبلكم وزالوا وأنتم ورثتمُوها ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ فإذا تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم، كيف تقسمون أنَّ ما لكم من زوال؟ أين عقولكم ؟!

فإذا كنتم عشتم هذا الموقف وأدركتموه تمام الإدراك، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم تمام البيان كيف فعلنا بهم، وكان أمامكم نماذج تمرُّون عليها في كل وقت ولم تؤمنوا؛ فكيف لو أعادكم مرة أخرى، هل ستؤمنون؟

وهم في تلك الحال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم، ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ من شدَّته!.

ففي أول السياق الله عزَّ وجلَّ بيَّن لنا المنع من الظنّ أنَّ الله يغفل عمَّا يعمل الظالمون.

وهنا منع آخر: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ لا تظنّ هذا الظنّ أنَّ الله يُخلف وعده رسله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ وسيظهر هذا الانتقام متى؟ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ **الواحد** الذي لم يعترفوا بتوحيده، **القهَّار** الذي سيظهر أثار قهره عليهم تامَّة في ذاك اليوم.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ وسنرى ما معنى مقرَّنين في الأصفاد.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ والعياذ بالله ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ بمعنى أن لا ظُلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وهذا كلّه الذي سمعته: ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

إذن ما المصالح من وراء نزول هذا الكتاب؟ بلاغ، إنذار، لتعلم إنما هو إله واحد من أجل أن يتذكر أولوا الألباب.

بعدما فهمنا الآيات على وجه العموم، نفهمها بشيء من التفصيل من كلام الشيخ السِّعدي رحمه الله.

يقول: **هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين**، بمعنى أن كل مظلوم وقع عليه الظلم، عليه أن يَعلَم عِلم اليقين أنَّ الله ليس بغافل، فأصبح هذا تعزية للمظلوم ووعيدٌ للظَّالِم، وعيدٌ شديدٌ للظالمين وتسلية للمظلومين.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين؛ أي أنَّ **الإمهال صورته**: إدرار الأرزاق والأمن، يتقلبون آمنين، **فليس في هذا مايدلُّ على حُسن حالهم**، أي لاتظنّ أنَّ أرزاقًا تجري عليهم، وأمانًا نسبيًا يعيشونه ويتقلَّبون فيه، لاتظنّه دليلًا على حُسن حالهم.

فإنَّ الله يملي للظالم ويمهله؛ ليزداد إثمًا حتى إذا أخذه لم يفلته، وهذا مايستحقه هذا الظالم، فالله عزّ وجلّ يعامل عباده بالحلم ويربِّيهم، ويبيِّن لهم قدرته عليهم، فإذا أصرُّوا فتح لهم الأبواب، فظنُّوا من ضعف عقولهم وعدم معرفتهم لربهم، أنَّ هذا هو الدليل على أنَّهم يسيرون في طريق مستقيم، وأنَّهم لوكان هنا كعقاب، لو كان الله عزَّ وجلَّ يُعاقِب الظالمين كان خسف بهم الآن، أو لنزع من أيديهم الأرزاق! ولايفرِّقون بين تربية الله عزَّ وجلَّ لعباده المتَّقين المؤمنين وبين معاملة الظالمين.

كثير من الناس يقولون: ممَّا تقرَّر عندنا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يحرم الإنسان الرِّزق بسبب الذنب؛ يذنب المؤمن الموحد المسلم الذي يشهد لله بشهادة التوحيد يُذنب؛ فنقول له: ذنبك هذا سيسبِّب لك الحرمان من الرزق، فكيف وهو مُسلم يُحرم من الرِّزق وهذا كافر متجبر طاغ ظالم يُدر عليه الرزق؟! نقول: نعم، هنا فارِق كبير بين معاملة الله لأوليائه الذين يُحبُّهم ويُربِّيهم ويُرقِّيهم وبين معاملته لأعدائه:

فإن معاملته لأوليائه يكون وراءها الإنعام عليهم بإذاقتهم آلام المعصية ليعودوا إلى طريقه، ويُنعِم عليهم بأن يضيق صدرهم بعد الآثام ليعودوا إليه وينيبوا.

أما أهل الكفر الذين تولَّوا الشيطان، وركِبوا هواهم، فيعاملهم بما يستحقُّون؛ يتركهم يغترُّون ويظنُّون أنَّما عليهم من نِعَم تدلُّ على أنَّهم على الصراط المستقيم، وهذا كما اتفقنا **يسبقه تربية ويسبقه تعليم لهم**

ويسبقه معاملة بالحلم، لكن لما يصرّ القوم تكون هذه معاملة الله عزَّ وجلَّ لهم، فقد اختاروا أن يكون هذا حالهم، والله عزَّ وجلّ غنيٌّ عن الخلق كلهم.

بهذا نفهم أن معاملة الله لأهل الإيمان ليست كمعاملة الله لأهل الإعراض والكفر، لأنَّ أهل الإيمان لما يأخذهم بالبأساء والضراء يضَّرَّعون، لكن أهل الكفر لمايأخذهم الله عزّ وجلّ بالبأساء والضراء لايتضرَّعون، ولذلك كما قال الله عزّ وجلّ في سورة الأعراف: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾[٢] المؤمنين ما أن يذوقوا البأساء والضراء، مباشرة يضَّرَّعوا، أهل الكفر يزدادون قسوة، ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾[٣]: أي دُرَّت عليهم الأرزاق وأصبحوا أهل عافية، فكيف يفسرون ذلك؟.

﴿ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ يعني أنَّ هذة أحوال الحياة ليست تربية ولا تأديب ولا من أجل أن نعود ولا لحكمة ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ إذن معنى هذا أنَّ علينا أن يحُسن اعتقادنا في ربِّنا فلا نظنّ ظنَّ السُّوء.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ ﴾ فلا تظن إدرار الأرزاق وتقلبهم في البلاد مطمئنين آمنين.**قال: فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه لم يفلته** ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾[٤] **والظلم –هاهنا– يشمل الظلم فيمابين العبد وربه، وظلمه لعبادالله.**

أي أنَّ هناك ظُلم بين العبد وبين ربِّه. **هذا الظلم فيه نوعان:**

١. أن يضع الإنسان شكره وثناءه في غير موضعه؛ فيبدأ من الشِّرك إلى المعاصي، هذا كله يدخل في الظلم فيما بين العبد وربِّه.
٢. وظلمه لعباد الله هذا نوع آخر من أنواع الظلم يقترفه الإنسان.

---

[٢] [الأعراف: ٩٤]
[٣] [الأعراف:٩٥]
[٤] [هود:١٠٢]

وأنواع الظلم هذه لها مستوياتها ودرجاتها، فيدخل في هذه الآية كل من ظَلَم:

- فيما بينه وبين الله.
- وفيما بينه وبين العباد.
- ودرجات الظُّلم يقابلها درجات العقوبة.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ **أي: لا تَطْرُفُ من شِدَّة ماترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل. تشخص** بمعنى: أنَّ هذه العين لا تطرف أبدًا. فترفعها وتنظر دون أن يطرف جفنها أبدًا.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ **أي: مُسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ.**

إذن **من جهة أبصارهم يشخصون** أبصارهم فلا يحركونها.

ومن جهة حركتهم فهم **مهطعين**؛ أي مسرعين لما دعاهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: إقناع الرأس أي رفعه. **أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم؛** ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ **أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنَّها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.**

أفئدتهم فارغة من قلوبهم! صورة عجيبة (أفئدتهم فارغة، هواء!) أي خرجت قلوبهم من مواضعها، فيصبح الفؤاد فارغًا من القلب، قلوبهم صعدت إلى الحناجر، مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق!. **فقلوبهم ستكون خالية عن العقل والفهم، مملوءة بالهم والغم والحزن والقلق**، وهذا بسبب مايشاهدونه من الفزع والحيرة والدهشة، فالحاصل أنَّ القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة، والرؤوس مرفوعة إلى السماء، وهذا كله من هول ذلك اليوم وشدّته!.

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ أي: صِف لهم صِفة تلك الحال. –التي ستكون يعني يوم القيامة– **وحذِّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرَّجعة فيغير وقتها، ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ أي: ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا.** بعدما كانوا في عمى، عُمِّيَت عليهم الأنباء، يفكِّرون في أهوائهم وفي مصالحهم ولايبحثون عن مايُنَجِّيهم ويرفعهم يقولون: **﴿ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ ﴾ والله يدعو إلى دار السلام.**

﴿ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ وهذا كله لأجل التخلُّص من العذاب، وإلا فهم كَذَبة في هذا الوعد ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ ﴾[٥].

ولهذا يُوَبَّخون ويقال لهم: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مَّا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين حنثكم في إقسامكم، وكذبكم فيما تدعون.

بمعنى أنَّ طلبكم هذا أتى، وأنتم الذين تجبَّرتم وقلتم أنَّه مالكم من زوال، فقد قالوا في مواطن **﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ ﴾**[٦]، فهذا كان قولهم: **﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم ﴾** مثل قوله تعالى: أقسمتم من قبل؟ أقسموا على أي شيء؟ **﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۙ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة.** والموت في تفسيرهم نهاية كل حي، أنه سيموت وتنتهي الحياة.

فها قد تبين حِنثكم في إقسامكم بهذا اليوم العظيم، **وكذبكم في ماتدَّعون ،﴿ وَ ﴾ ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البينات،** أي الذي جعلكم تُكذِّبون في الدنيا ليس قصور الآيات، فقد كانت الآيات غاية في الوضوح. بل **﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ**

---

[٥] [الأنعام:٢٤]
[٦] [النحل:٣٨]

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ **من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات،وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته،** -لكن لمن كان يريد الحق- **فلم تنفع فيكم تلك الآيات بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.**

إذن **الآيات غاية الوضوح** لكن **تُعَمَّى** عمن لا يريد الحق، **تُعَمَّى** عمن لا يسأل الله الثبات، **تُعَمَّى** عمن لا يستهدي الله!.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ **أي: المكذبون للرسل** ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ **الذي وصلت إرادتهم وقدر لهم عليه.** أي أن هذا المكر وصلت إليه إرادتهم والله عزَّ وجلَّ أقدرهم عليه ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ **أي: هو محيط به علمًا وقدرة، فإنَّه عاد مكرهم عليهم** ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[٧].

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ **أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، وبمن جاء به –من عظمته–** ومن عظمة هذا المكر ومن خططهم ومايبذلون، **لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها.**

فلذلك لا تستعجبوا أن تجدهم في بغضهم وكراهيَّتهم لما جاء به الرُّسل من أجل تضليل الناس عن هذا الذي جاء به الرسل، يبذلون أموالهم وأوقاتهم ويجنّدون جنودًا، وتكون عندهم منظمات سرية، وتكون عندهم أعمال فيها تضحية عظيمة بجهودهم وأوقاتهم وأبنائهم، وهذاكلُّه مكرٌ منهم، والله يصف مكرهم ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾: أي لو نفذ مكرهم لزالت منه الجبال! المعنى:أن مكرهم عظيم استفرغوا فيه وسعهم، لكن لا تبتئس لمكرهم.

أي: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾[٨] **لا يقادر قدره ولكن الله ردّ كيدهم في نحورهم.**

---

[٧] [فاطر:٤٣]
[٨] [نوح:٢٢]

ونحن نرى مايبذلونه من صناعة الإعلام كسلاح يهدم البيوت ويقتل العقيدة الصحيحة، ونقول هذا المكر الذي مكروه لا يحيق إلا بهم، والله يجعل هذا الإعلام سلاحًا في يد أهل الإيمان، ويجعل وسائلهم التي اخترعوها وسيلة لأهل الإيمان لنشر الحق.

ويدخل في هذا كل من مَكَر من المخالفين للرسل، لينصر باطلًا، أو يُبطل حقًا، والقصد أنَّ مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا الله شيئًا، وإنما ضرُّوا أنفسهم. ومن تأثَّر بمكرهم وتابعهم فإنَّه ضعيف الإيمان، لم يُحفَظ بحفظ الله؛ لأنَّه لم يُقبِل على الله كما ينبغي.

اللَّهم ثبِّتنا وقوِّي إيماننا نحن وذرارينا، واحفظنا والمسلمين وذرِّياتهم من شر الكائدين الماكرين إنك على كل شيء قدير.

إذن انتهى السياق الأول بأن تحسن ظنَّك بالله، ولا تحسب أنَّ الله يغفل عما يفعل هؤلاء الظالمين من تقتيل وتشريد للمسلمين، لاتظن ذلك، إنَّما يؤخِّرهم ليوم يحصل فيه من الأهوال، ويحصل عليهم من العذاب، ما لا يستطيع أحد أن يردَّه عنهم، ولا أن يقدِّر قدر هذا العذاب، وفي ذلك هم ليسوا بالمظلومين، بل هم مستحقون لما يقع عليهم من عذاب بسبب ما يمارسون من مكر مكروه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، إذن أحسن الظن بالله ولا تحسبنَّ الله غافلًا عما يعمل الظالمون، ولاتحسبنَّ الله مخلف وعده لرسلهِ عليهم السلام هم وأتباعهم، بل سينجيهم وينجي أتباعهم ويهلك أعداءهم ويخذلهم في الدنيا.

وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بدَّ من وقوعه لأنه، وعد به الصادق سبحانه وتعالى قولًا على ألسنة أصْدَق خلقه وهم الرُّسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصًا وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء. إذن الله وَعَد، والوَعْد هذا أتانا على ألسنة الرسل، نحن نصدق هذا الخبر يقينًا، وهذا من إيماننا بالله المؤمن المصدِّق لخلقه ماوعدهم، وهذا الوعد ترى كم هو مُطابِق للحكمة الإلهية، فالدنيا دار اختبار، فهناك من ائتمر بأمر الله وهناك

من لم يأتمر، فتبقى الدنيا دار اختبار؛ الجزاء في الآخرة. فأنت ترى أنَّ الله لايمكن أن يكون غافلًا عما يعمل الظالمين، لا يمكن أن يخلف رسله وأتباعهم ماوعدهم، خصوصاً أنه وعد، وأنَّ وعده هذا مطابق للحكمة الإلهية، والسنن الربانية، وللعقول الصحيحة. ولماذا تتصوَّر أنَّه يخلف وعده **وهو** ﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾!

إذن نجد اعتقادين الآن علينا أن نحملهما في قلوبنا:

أولاً: إذا كان أهل المكر يمكرون فإن مكرهم عند الله، أي أنَّ الله محيطٌ بمكرهم، وسيجعل مكرهم عليهم.

ثانياً:أن تعتقد أن الله عزيز ذو انتقام، يعني ينتقم ممن أراد أن ينتقم منه، **فإنه عزيز ذو انتقام: أي: إذا أرادأن ينتقم من أحد، فإنه لايفوته ولايعجزه.**

وهذا الانتقام ممكن أن يكون في الدنيا وممكن أن يكون في الآخرة، لكن الأصل أنه يوم القيامة، وأنَّ الدنيا تبقى دار اختبار، يُختَبَر فيه من صدَّق بوعد الله ممَّن غرَّته المظاهر والأحوال.

فإن كثيرا اليوم من يرى أحوال العالم الإسلامي في كل مكان فيقع في قلبه اليأس من روح الله وعدم الثقة في وعد الله ما يدلّ على ضعف الإيمان! الله يمكُر بالماكرين فيجعل مكرهم مردودًا عليهم، وينتقم من المجرمين، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وكم مكروا فجعل الله مكرهم سببًا لنَصرَة الدين.

ونحن على يقين أنَّ الباطل لا يمكن أن يدوم في العلو، وأنَّ الحق هو الذي له الإدالة الدائمة، والباطل أحيانًا يظهر على الحق اختباراً وامتحانًا.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ تظهر تمام عزّته. **وذلك في يوم القيامة،** ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ **تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات،** تبقى الأرض هي الأرض والسماء هي السماء إلا أن صفتهما تتبدل.

فإنَّ الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمَد كمدِّ الأديم، ويُلقى ماعلى ظهرها من جبل ومَعْلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله تعالى بيمينه. وهذاكله مما نعتقده في **الدار الآخرة**، أنها أحداث يقينًا ستكون.

﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ **أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء،** هذه **أحداث البعث، أحداث عظيمة** يجب أن تكون منا على بال، لأننا سنكون فيها، وستمرُّ علينا وسنعيشها يقينًا، سنبرز لربِّنا ما يخفى عليه منَّا أحد، سنقف بين يديِّ الله الواحد القهار.

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ **أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتدبيره، فلايتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.**

لكن القوم لا يعرفون الحق، فيظنون عطايا الله لهم ملك، ففي ذاك اليوم يبرزون بين يدي **الواحد القهار**.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ **أي: الذين وصْفُهم الإجرام وكثرة الذنوب،** وماتوا بلا توبة ولا عودة و لا إنابه إلى ربهم. تراهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ **في ذلك اليوم** ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ **أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيُقادون إلى العذاب في أذلِّ صورة وأشنعها وأبشعها.** وقد كانوا في الدنيا يستهزؤون بحقائق الإيمان، ويستهزؤون بلقاء الله ويُصرُّون على هذه الذنوب.

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ **أي: ثيابهم** ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ **وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ونتن ريحها.والعياذبالله.**

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ﴾ **التي هي أشرف مافي أبدانهم، التي لا يشرفوها بالسجود.** ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ **أي: تحيط بها وتصلاها من كل جانب، إذا كانت الوجوه وصلها النار إذن وغير الوجوه من باب أولى وأحرى،وليس هذا ظلمًا من الله لهم، لذلك أنت دائمًا تسمع في القرآن ويكرَّر عليك، كيف أنَّ الله أنذرهم، كيف أنَّهم يردون على الأنبياء، ماذا يفعلون، تعرف أنه لمن يقع عليهم**

العذاب أنهم يستحقون وإنَّما هو جزاءً لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر بالعدل والقسط الذي لا جَوْرَ فيه بوجه من الوجوه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾[٩] يعني كأنَّه يُقال: سيأتيك الحساب ليس ببعيد، الأيَّام مهما طالت ستنطوي سريعًا، وسيأتي وقت الحساب، هذا معنى.

ويحتمل أنَّ معناه: سريع المحاسبة في حاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة لا يشغله شأن عن شأن وليس ذلك بعسير عليه سبحانه.

والله أعلم بما هو المقصود، لكن قد ورد في بعض النصوص أنَّ يوم القيامة يكون للمؤمن الذي آمن بالله وبكمال صفاته، وآمن بلقائه، وامتلأ قلبه يقينًا بذاك اليوم العظيم، وامتلأ معرفة بما سيكون فيه، يكون هذا اليوم العظيم الهائل كما بين الظهر والعصر للمؤمن.

اللهم يسِّر حِسابنا ويمِّن كتابنا!

يقول: **فلما بين البيان المبين في هذا القرآن** بعد ماتبيَّن لنا ماذا يجب علينا أن نعتقد من أول السورة المقصود، وهنا أسأل الله أن تكون امتلأت قلوبنا يقينًا بالله وثقةً به،أنَّ الظالم أيًّا كان موقعه ومكانه فالله عزَّ وجلَّ ليس بغافل عنه، وأنَّ الله لا يُخلف وعده رسله، ولايتطرَّق إلى قلوبنا أبدًا هذا الحسبان، بل نتقرَّب إلى الله باليقين أنَّ شرَّ هؤلاء زائل، نسأل الله أن يُعجِّل بالفرج للمسلمين في كل مكان سواء كان هذا على مستوى الدول أو على مستوى الأفراد.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يُعَجِّل للمسلمين الفرج في كل مكان، ويزيل الظالمين، ويحقِّق لنا ما وعده على لسان رسوله ونحن على يقين أنَّه يتحقق، رأينا ذلك أولم نراه.

---

[٩] [الأنبياء:١]

لما بيَّن لنا هذا البيان المبين واطمأنت نفوسنا، ونسأل الله أن تطمئن نفوسنا لما ذكر، ونتقرَّب إليه بهذا اليقين **قال في مدح القرآن:**

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ **أي: يتبلّغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات**، فهل نشعر تجاه القرآن أنَّه مثل الزَّاد الذين نأخذه فنبلغ به في **اعتقاداتنا وأعمالنا إلى المراتب العليا ونبلغبه إلى يوم لقاء الله** ونحن في أحسن حال؟! هل هذا هو اعتقادنا في القرآن؟

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يتبلّغون به إلى المراتب العليا، يتبلّغون به إلى لقاء الله.

فأنت تعيش في أحوال، ضجيج، لاتعرف الحق من الباطل، فيأتيك هذا القرآن وتأتيك مافيه من علوم وما فيه من آيات **كالماء البارد**، تسير وتبلغ به المقامات العالية.

وهذا من **أعجب الوصوفات للقرآن**، أنك أنت بالقرآن تبلغ، فأنت في سفر سائر تحتاج إلى زاد، فهذا القرآن يحصل به البلاغ، تتزوَّد به للوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات.

لِمَا اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ **لما فيه من الترهيب من أعمال الشرِّ، وما أعدَّ الله لأهلها من العقاب**، لذلك فلا تظن أنَّك لا تحتاج إلى الترهيب، الله الذي خلقك، علَّمك، رغَّبك، ورهَّبك، صغيرًا كنت أو كبيرًا، شابًا أو متقدمًا في العمر، طفلًا أو مراهقًا، الجميع يحتاج ونفي مسيرتهم إلى ربِّهم أن يعرفوا ما في القرآن، وكلَّما علَّمته أكثر، ازداد ثباته أكثر، شرح الله صدره للقرآن، فيتبلَّغ بهذا القرآن لأعلى المراتب.

﴿ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ فالقرآن أعظم ما فيه أن تصل إلى هذه الحقيقة، تستفيد مما ورد مافي القرآن.

حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته،ما صار ذلك حق اليقين. إذن لو قرأت القرآن كما ينبغي ستصل إلى حق اليقين أنَّ الله إله واحد، وأنَّه لا يستحق غيره الألوهية.

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾أي: **العقول الكاملة، ما ينفعهم فيفعلونه، ومايضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.**

إذن : من هم **أولوا الألباب**؟ هم أصحاب العقول الكاملة الذين عندهم عقل رشد، هؤلاء أصحاب العقول الكاملة ما وصفهم؟ هؤلاء **يتذكرون ماينفعهم**، يعني يعرفون الشيء الذي ينفعهم فيفعلونه، ويعرفون ما يضرهم فيتركونه، معنى هذا أن أهل العقول وهم أولوا الألباب علومهم مرتكزة على القرآن، النفع عندهم الشيء النافع عندهم مصدره ما عرفوا من القرآن، الضار عندهم مصدره ما عرفوا من القرآن.

وهذا أمر عظيم قليل من يفهمه، فإن كثيرًا ممَّن يحفظون كتاب الله لايجعلون الحق والباطل مصدره من القرآن، الأشياء التي يستسيغونها حقًا أو يَمُجُّونها باطلًا ممكن أن تكون من عاداتهم وتقاليدهم وليست من القرآن.

المقصد أن أهل العقول الكاملة يعرفون ماينفعهم فيفعلونه ومايضرهم فيتركونه لذلك صاروا من أولي الألباب. إذ **بالقرآن** ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم. بالقرآن حصل هذا الشيء.

إذن عصر النور هو العصر الذي يصبح فيه القرآن قائدًا لأفكار الناس

وليس عصر التنوير الذي يرفض فيه الناس القرآن، إنه عصر الظلمة الدامسة وليس عصر التنوير.

لما أخذوه غضًّا طريًّا. هم أخذوا القرآن من القرآن، أخذوا الأوامر من القرآن، أخذوا النواهي من القرآن، وما حال بينهم وبين القرآن أحد.

فإنَّه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. كل الذي في القرآن يدعو لأعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، وهذه الأعمال العالية والأخلاق العظيمة تجد أدلَّة عليها بأقوى الأدلَّة وأبينها، أي أن كل أمر أُمِرنا به، أو خُلُق أُمِرنا أن نتخلَّق به، عليه أدلَّة سواءًا كانت الفطرية أو العقلية ماتجعل هذا الأمر غاية في الأهمية، وتجعل كل من كان سليمًا من الهوى يوافقوا على أنَّ هذه الأخلاق والأعمال مهمَّة للإنسان.

وهذه القاعدة إذا تدرَّب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

ماهي هذه القاعدة؟

أن يكون صاحب عقل كامل من أولي الألباب، يقرأ القرآن يتعلَّمه وتتنوَّر أفكاره، يرى ما يدعو إليه القرآن، فيجعل مقياس الشيء النافع هو مادلَّ عليه القرآن، والشيء الضار هو مانهى عنه القرآن، فإذا تدرَّب الإنسان في هذه الطريقة، ترقَّى؛ لا يزال في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

وهذا معناه أن **أهل الإيمان يجعلون القرآن أمام أعينهم**، يعتقدون في حياتهم من خلال القرآن.

فنحن اليوم قرأنا أمرًا عظيمًا، **قرأنا اعتقاد في الله عز وجل يجب أن يكون يقيني**؛ **نحن على يقين:**

- أنَّ الله ليس بغافل عمَّا يعمل الظالمون.
- أنَّ الله لا يُخلِف وعده رسله.
- أنَّ الله يردُّ على الماكرين ويردُّ عليهم مكرهم.
- أنَّ الله ينتقم من المنتقمين.

لكن ما تفاصيل هذا؟ وكيف يكون في الدنيا والآخرة؟ هذاكلُّه شأنه إلى الله.

لكن أنت المطلوب منك أن يمتلئ قلبك يقينًا، وهذا اليقين يظهر على جوارحك ومن ثم يصبح القرآن هو الذي يهديك إلى ربك، ويسير بك في اعتقاداتك وفي معاملاتك، وتعرِض من ثمَّ عن الجاهلين، لأن أكثر ما يؤذينا ونحن نسير في طريقنا إلى ربِّنا ونتعلم عنه ونمتلئ باعتقادات صحيحة من القرآن، أكثر مايؤذينا هم القوم الذين يجهلون.

اللهم علِّمنا وعلِّم المسلمين، وأصلحنا وأصلح شأن المسلمين، واجعل آخر كلامنا من الدنيا هذه الكلمة العظيمة؛ كلمة لا إله إلا الله.

اقبل منَّا أعمالنا، وأصلح لنا قلوبنا، واكفينا شرَّ أنفسنا، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.